انيبـــال [1]

هو قائد من أهل قرطجنة ولد فيها سنة ٢٤٧ قبل المسيح ومات سنة ١٨٣

يجدرُ بنا أن نعرضَ عن الكلام في حياة الاسكندر المكدوني الذاهبة على غير طائلٍ وجدوى ، ونأخذَ في ذكر حياةٍ لا يفضلها حياةٌ نبالةً وحماسةً : ألا وهي حياة القائد انيبال فنقول :

هو الرجلُ الذي آتاهُ اللهُ جميعَ مواهبِ العقلِ ، وجودةِ الطبع ، وزيّنهُ بأفضلِ ضروب الاستعداد التام لإتيان أشرفِ المساعي ، وأسمى الاعمال الخطيرة

وُلدَ في بيت قادةٍ اشتهروا بالذود والدّفاع عن استقلال مدينتهم ، حتى المات . وكانت روحهُ كأنها نوعٌ من المعدن قد صيغَ في وسط اتون البغض والحقد المتقد حول رومة بجزلِ مطامعها . واذ بلغ التاسعةَ من عمره فارقَ قرطجنة وصحب أباهُ الى حيث كان مثوى اجداده قصدَ ان يحيا ويموتَ في محاربة الرومان . فدلَّ ذلك ان الأعمال الحربية كانت مرتاد أمانيهِ ومرمى همهِ . فاعتاد منذ صغره الرُّقادَ في ساحات الوغى ومواطن القتال ليكفى بهذا الاعتياد الوجعَ في عُنُقهِ من تمادي خَشِنِ الوساد ، وفي سائر جسمه التبرُّم من الاضطجاع على مثل شوك القتاد وليأمن مظانَّ المخاوف ، ويتمرّنَ لبُّهُ على تدبُّر الأعمال الحربيــة بحيث يكونُ ، في أعظمِ الأهوال وأشدِّ الحروب ، أفضلَ من غيرهِ في أصفى الأحوال والأوقات . ثم بعدَ وفاةِ أبيــهِ « أميلكار » العظيم ، وصهرهِ « أسد روبال » اللذين قضيا نحبهما قتيلين في حومات الوغى ، انتخبه الجيشُ القرطجني قائداً عاما ، مع أنَّ سنيهِ لم تتجاوزِ الست والعشرينَ اذ ذاك ، خلافاً لرأي مجلس الملاء القرطجني ، لأنهُ كان ينفسُ على بيت بركا — بيت انيبال — عظمَ مكانتهِ وشهرتهِ

ولما استولى انيبال على قيادة الجيش جعلهُ مثلهُ ممتلئاً حقــداً وحنقاً على الرومانيين ، ومُحرزاً إقداماً وثباتاً بليغين . ثم زحف بهِ في أكباد اوروبا ، وكانت

(١) تابع المقابلة بين نابوليون ومشاهير الرجال

حينئذٍ مجهولةَ المسالك، كأواسط أفريقية الآن ، واجتازَ جبالَ « البيرينه » وجبال « الالَب » في ثمانينَ ألفَ جنديّ ، وقد فقد منهم أكثرَ من خمسين ألفاً في مسيره الشاقّ الشاسع الخارق العادة ؛ واستمرَّ سائراً لا تصدُّهُ الصعابُ والعقباتُ المتنوعة اعتقادَ وجوبِ محاربةِ رومة في بلادها ، للتمكن من الاستحواذ عليها ، الى أن دخل ايطالية ، مشيراً على رومة أتباعها ورعاياها . فوثب على القواد الرومانيين واضطرَّهم الى مزايلة مراكزهم ومعسكراتهم الحصينة ومنازلهِ، بتظاهره باستصغار شأن بعض القوّاد ، والاستخفاف بقلة شجاعتهم ، وبما زيَّن لكبرياء وخيلاء قوم آخرين منهم ؛ وما زال بهم حتى ظهر عليهم شيئاً فشيئاً وكاد يكبّهم ويقهرهم كافةً ، لولا أن تصدَّى له قِرْنٌ مكافئٌ له في الشدّةِ والبأسِ ، وهو «فابيوس» الذي أشار بأنَّ من الواجب أن يُقاومَ هذا الجبارُ ليس بقوّةِ السلاح في وقائع حرب لا يطمع منها بالغلبة عليهِ ، بل بفضل الثبات الذي هو من فضائل رومة الحقيقية

ولما رأى انيبال غلطهُ بانكبابهِ على « الغاليين » لعدم ثباتهم ، وتحقق عدمَ إمكانهِ أخذ رومة ذهب الى جنوب ايطاليا ، وكانت البلادُ ثمَّةَ متمدّنة وحكوماتها متألفةً من مجالسِ أشرافٍ مستبدَّةٍ برعاع الشعب ، فخضد شوكةَ الشرفاء مع كونه شريفاً ، وسلّم مقاليدَ الحكومة الى الشعب ، وجعل مدينة « كابو » عاصمة حكومتهِ ، متباعداً نزيهاً عن الملاهي والملاذّ خلافاً لما توهم أو أوهم كثيرٌ من المؤرّخين، اذ أنهُ لم يكنْ يعرفُ مواردَ الترَفِ والتلذّذ ، ولم يذُقْ طعمها في كل حياتهِ . ثم جدَّد نشأةَ جيشهِ وأغناهُ بمسلوبات فتوحِ البلدان . وما منعه خذلانُ أهل وطنهِ اياهُ ان استدعى اليهِ بشعوب الأرض وشبَّ الحربَ في اليونان وآسيا مستثيراً سكانَ الدنيا قاطبةً لمقاومة الرومان . وما زال مدَّةَ اثنتي عشرة سنة فاتكاً بكلّ جيشٍ روماني يخرُج لقتالهِ ، ولهُ من نفسهِ ناصرٌ معين ، وهو رابط الجاش ، رسوخ القدم في ايطاليا ، حتى أنَّ الرومانيين باتوا قانطين من جلائه عن بلاد ايطاليا

ولكن أتى يومٌ نقلوا فيهِ مراكزَ القتالِ ومواقفهُ الى أفريقية ، تحت أسوار قرطجنة ، فاستغاثت بهِ مدينتـه ، فخرج يقاتلُ العدو بجيشهِ المتضعضع جيشاً منظماً

جديداً ، فنكص جدُّهُ الباسق ونقص حظّه السابق ، فلم يجد بدًّا من ان يدين « لسيبيون » الجديد الطالع نزولا على حكم الدهر وتقلبات الأيام ، فعاد متحسراً متقطعاً الى وطنهِ ، وجعل يسعى في لمّ شعثهِ وإصلاح أحواله ، ليصيرَ قادراً على نزال الرومانيين كرةً ثانيةً . ثم وشى بهِ مواطنوه المتلبسون بالجور والاستبداد (تشيعاً للرومانيين) ، ففرَّ الى المشرق لائذاً بحمى « انطيوخوس » الكبير ملك سوريا . ثمَّ لجأ الى بلاط « بروز باس » ملك بيثينيا ؛ فجدَّ في طلبهِ جماعةٌ من الرومان مناوئيه الى أن آيس من مداومةِ القتالِ ، فتناول سمًّا وقضى بهذا السبب . وهو آخرُ بطل من أبطال عشيرته لأنهم بأجمعهم ماتوا ميتتهُ أحراراً في سبيل هذا القصد المقدَّس ، وهو مدافعة التسلُّطِ الاجنبي ومقاومته

ومن الممتنع ايجادُ مظهرِ ضعفٍ في تضاعيف حياة هــذا الرجل العجيب المتحلي بكل مزايا المروءة والعقل والإقدام . أجل لا يستطاع التماسُ مثلِ هذا الضعف او هذه النقيصة . ونحن نحاول فيــه وجود ميل ذاتي كحبّ المال او الملذّات او الطمع او غيره ولكن لا نجـدُ في الرجل الاّ ميلاً واحداً وهو بغضهُ اعداء وطنه . قد نسب اليهِ « تيت ليف » المؤرخ الروماني البخلَ والقسوة ولكن تهمتهُ هذه في غير محلها . نعم ان انيبال قد جمع أموالاً طائلةً ، ولكنه لم يستعملها قط لأغراض ذاتية ، وانما كان يخصصها لدفع رواتب جيشهِ

قلنا إنَّ أهلَ وطنــه كانوا قد تركوا نصرتهُ ، والجيش المذكور لم يعصَ قط اوامر قائده انيبال ، لما له من السطوة والهيبــة والحكمة خلافاً لأمثاله من الجيوش المؤلفة من جنود غرباء وعصابات بربرية [1] مختلفة الجنسية والوطن واللغة . وقد

(١) ان معنى لفظة « بربري » في الاصل متوحش او غير متمدن ، فاسم البربر يطلق على كل الشعوب الهمجية الغير الداخلة في الهيئة الاجتماعية . وكان اليونان في سالف الزمن يدّعون التمدن لأنفسهم فقط ، ويطلقون لفظة برابرة على سائر الشعوب . اما الرومان فلما كانوا قد اخذوا التمدن عن اليونان فقد اطلقوا لفظة متمدن على انفسهم وعلى اليونانيين ، ولفظة برابرة على غيرهم من الشعوب — وتطلق الان لفظة برابرة او مغاربــة على سكان تونس ومراكش والجزائر وطرابلس الغرب في شمالي افريقيــة ولكن ليس من رابط معنوي بين الاسم الاول واسم هؤلاء الشعوب الاخيرين

أرسل انيبال الى قرطجنة عدّة امداد ممتلئة بالخواتم والفتخ الذهبية التي احذها اسلاباً من قتلى اشراف الرومانيين ولكن لم نجدُ لهُ في تضاعيف التاريخ ذكرَ مُنكر أتاه ، ولم يسفكْ دمَ انسانٍ بلا حرب . فينتج من كلامنا انّ شهادةَ المؤرخ الروماني تعودُ على قائدنا هذا بالفخر والشرف

وبالاختصار فان أقوالَ التواريخ والازمنة التي توالت بعد هذا البطل سيردّدها جميعُ الأمم والأجيال الى منقضى العالم . وذلك أنّ مظهرَ حياةِ هذا القائد المجيد ، لهو أشرفُ مظاهر الحياة البشرية في هذه الدنيا لدلالته على همةٍ عالية ، ومدارك سامية يندرُ وجودُها ، خصوصاً حياته خلت عن كل أرَبٍ شخصي ، واثرة ذاتية ، لم يلابسها الاّ هوى فرد ، ألا وهو حبُّ الوطن حتى انهُ قضى أخيراً شهيد محبته لوطنه

يوليوس قيصر

قائد روماني ولد سنة ١٠٠ قبل المسيح وتوفي سنة ٤٤ ق- م.

ها انّا موردون ترجمة شهيد آخر لم يتفانَ في حبّ وطنهِ ، ولكن ذهب قتيل الطمعِ — نريد بهِ هذا الرجل العجيب المنقطع النظير ، الذي لم يكن يخلو عن ضربٍ من ضروب النقائص والرذائل ، وكانت حياتهُ كلها عبارةً عن سلسلة تعدّياتٍ على وطنهِ

وبالجملة فانّ هذا الرجلَ هو « قيصر » ثالثُ الرجال العظام المشاهير في في الاقدمين . وُلدَ ونشأ وشبَّ متحلياً بصنوف الصفات ، فانهُ كان شجاعاً فصيحاً لطيفاً كريماً جواداً مفرطاً في السخاء ؛ بيدَ انهُ كان يؤثرُ السذاجةَ في اعماله ؛ ولكن لم يكن عندَه اقلُّ همّ في ان يفرق بين الخير والشرّ ، لا في العمل ولا المبدأ . وكان قصارى همهِ ومبدأ جميع أعماله طلب الغاية التي قصّر عن بلوغها